الرحلة السورية الثانية

— ٢ —

لما عقدت الهدنة بين دول الاحلاف والدولة الالمانية مني نفسه كل من له اهل في سورية وكل من يهتم بشؤونها الاقتصادية والسياسية أن يسافر اليها في أول فرصة وصاروا ينتظرون الاذن بالسفر اليها وعودة البواخر التي تنقل الركاب وعروض التجارة الى سابق عهدها

و بعد طول الانتظار وقع الاذن مقيدا بشروط عسيرة ومقيدا بقيود ثقيلة زمامها بأيدي السلطة العسكرية المتصرفة في الشؤون السياسية والاقتصادية في العالم تصرفا مطلقا والمراقبة على مواصلات البر والبحر فكان مثلي لا يطمع ان يكون من السابقين الى رؤية وطنه والقيام بشيء من خدمته أو مواساة أهله فيه وعشيرته، بل تعذر على ايصال ثلاثة (طرود) من الاقمشة الى فقراء اهل بلدتي (القلمون) الذين ذهب الجوع والعري في ايام الحرب بثلثيهم ، فانني بعد أن ابتعت القماش ظللت عدة أشهر أسعى الى ارساله باذن من السلطة الفرنسية التي أعطيت الاشراف على المواصلات والنقل في البحر مع بقاء السلطة العليا في البر والبحر للسلطة الانكليزية بحق القيادة العليا للجيوش المحاربة في سورية الجنوبية (فلسطين) والشمالية ، ثم بواسطة لجنة المجاعة التي أرسلت بمساعدة السلطة الانكليزية كثيرا من المواد الغذائية والاقمشة وبعد اعطائي الطرود الجمعية بأشهر تمكنت هي من ارسالها الى وكلائها في بيروت فبقيت فيها اشهرا ثم أرسل بعضها الى طرابلس ففقد بعضه ولم يصل باقيها الا بعد وصولي اليها في خريف العام الماضي (*) فكان ما أردت أن يكسى به الفقراء في شتاء سنة ١٩١٩ كساء لهم في شتاء السنة التي بعدها

احتلت جيوش الاحلاف جميع البلاد السورية وطفقوا يمهدون السبل لتوطيد نفوذهم وسلطانهم فيها على قواعد معاهدة سنة ١٩١٦ — الانكليز في الجنوب

(*) تابع لما نشر في الجزء السابع ص ٢٦٧

والفرنسيس في الغرب الشمالي والعرب الحجاز يون في الشرق منه . ولكن مراقبة المواصلات بين سورية وبين مصر وسائر الاقطار كانت مشتركة بين الفرنسيس محتلي المنطقة الغربية والانكليز لمحتلين للمنطقة الجنوبية وحدهم والمشاركين للعرب والفرنسيس في احتلال المنطقتين الاخريين، ولم يكن للعرب من هذه المراقبة شيء فلم يكن لي أن أزور البلاد بنفوذهم . بل كتب الي علي رضا باشا حاكم المنطقة الشرقية العسكري كتابا ذكر فيه انهم ينتظرون قدومي كانتظار الظمآن الماء وانه طلبني وهو يتعجب من عدم استجابتي . فكتبت اليه انه لم يبلغني ما ذكر من طلبهم اياي وان أمر سفري ليس بيدي ... ثم اخبرني بعد لقائه في الشام انه طلبني خمس مرات ...

انني لم أطمع في الاذن لي بزيارة سورية الا بعد استفتاء اللجنة الاميركانية أهل سورية في شكل الحكومة التي يرضونها لبلادهم والدولة التي يختارونها لمساعدتهم

وعلة هذا ظاهرة لا تحتاج الى بيان . فلما سنحت لي الفرصة بعد هذا الاستفتاء واظهار الشعب لرأيه سعيت الى اخذ الجواز بالسفر الى الشام من طريق سيناء وفلسطين فتيسر لي مع المساعدات أخذ هذا الجواز في مدة ثمانية عشر يوما بعد أخذ عهد كتابي علي بأمور سلبية ترجع الى أمر واحد وهو عدم القيام بتهييج سياسي

السفر من القاهرة

سافرت من القاهرة مساء الجمعة السابع عشر من شهر ذي الحجة ختام سنة ١٣٣٧ [الموافق ١٢ سبتمبر ايلول سنة ١٩١٩] ولما جئت محطة السكة الحديدية وجدت فيها صديقي رفيق بك العظم جاء لتوديعي فيمن جاء من الاصدقاء فأخبرني انه قد جاءت برقية من دمشق تفيد أن الامير فيصلا (ملك سورية اليوم) قد سافر من الشام عن طريق حيفا ليسافر منها الى اوربة فساءني ذلك جد الاساءة لأن لقا الامير في ذلك الوقت كان هو المرجح الاول لسفري الى دمشق مباشرة دون بيروت وطرابلس ، ولعله لو اخبرني بذلك قبل شروعي في السفر لارجأته ولكن ابطال العمل بعد الشروع فيه مفسد للعزيمة مضعف الارادة ، وقد

قال تعالى لرسوله (فاذا عزمت فتوكل على الله) وقال عز وجل (لا تبطلوا أعمالكم)

ركبت القطار السريع فسار باسم الله في الساعة ٦ والدقيقة ١٥ فوصل الى محطة القنطرة الساعة ١٠ والدقيقة ١٠ أي بعد اربع ساعات تقريبا وهنالك نقل الحمالون متاعنا الى حيث تنظر الجوازات و بعد التوقيع عليها ينقل المسافرون ومتاعهم في سيارات نقل تجتاز الجسر الذي وضع هنالك على ترعة السويس الى موقف قطار سيناء وفلسطين في الضفة الشرقية ، وقد علمت أن خط مصر اتصل بعد ذلك بخط فلسطين فاستراح المسافرون من ذلك النقل المزعج . وصلت الى محطة فلسطين فاذا بديع افندى الحوراني ضابط قلم المخابرات ينتظرني فيها لاجل مساعدتي فتولى هو اخذ تذكرة السفر لى بالدرجة الاولى ووضعني في مركبة ليس فيها زحام ، وهو نجل ابراهيم الحوراني العالم الاديب البيروتي الشهير فما رأيته فيه من المروءة والادب يجري فيه على عرق راسخ ووراثة ثقفت بالتربية والتعليم ، وعلمت منه انه كان يتوقع حضوري يوم الخميس في القطار الذي يقوم من القاهرة الساعة ١١ قبل الظهر

لم يكن السفر في الدرجه الاولى من قطارات هذه السكة بالامر اليسير ، وكنت علمت ذلك مما كتبه سليم افندي سركيس الكاتب الشهير في جريدة الاهرام عن رحلته قبلى الى الشام ، فانه ذكر انه اخذ تذكرة الركوب في الدرجة الاولى فأركبوه في الدرجه الثالثه لحاجه الضباط الانكليز الى الدرجه الاولى والثانية لذلك سميت الى توصية من السلطة العسكرية الانكليزية بأن أركب في الدرجة الاولى فعلا فعلتها ونفذها الحوراني أحسن الله مكافأته . وثمن هذه التذكرة ٢٨٢ قرشا مصريا صحيحاً يركب بها المسافر الى نهاية الخط وهو مدينة حيفا

سافر بنا القطار الساعة ١١ والدقيقة ٣٥ وكان سيره بطيئا ووقوفه كثيرا وعلمنا في الصباح انه تأخر ساعتين عن موعده . وفي ضحوة النهار (السبت) وقف تجاه مدينة غزة الشهيرة التي أحدثت فيها الحرب خرابا عظيما ووصل الى [الله] الساعة ٨ والدقيقة ١٥ وسار منها الساعة ٩ و بضع دقائق فوصل الى حيفا الساعة ١٢ والدقيقة ١٥ نهارا . فاذا كان القطار تأخر بنا ساعتين كما قيل تكون مسافة سيناء وفلسطين الى

حيفا تسع ساعات وثلث ساعة . وهذا الخط قد أنشأته السلطة العسكرية في أثناء الحرب بسرعة عجيبة اقتضتها الضرورة فلم يكن متقنا وقد علمت انه يحتاج الى اصلاح يكون به الخط أقوم وأقصر

قطعنا نصف نهار يطوي بنا القطار اغوار سورية الجنوبية (فلسطين) وانجادها فلم نر شيئا من أرضها يدل على العناية الفنية في إنشاء البساتين والكروم الا ما في مزارع اليهود الصهيونيين. ورأينا ما مررنا به من الزيتون خاليا من الحب لان موسمه في السنة الماضية كان عظيما

السفر من حيفا بسكة الحديد الحجازية

انتقلنا عقب وصولنا الى حيفا من قطار سينا وفلسطين الى قطار سكة الحديد الحجازية ومركباته أحسن من مركبات ذاك وأخذ بعض الحمالين لي تذكرة السفر منها الى [معان] في الدرجة الاولى بمئة قرش وستة قروش مصرية صحيحة وتحرك القطار الساعة ١٢ والدقيقة ٣٥ فوصلنا الى طبرية (س ٣ ق ١٥) وبعد تجاوزها صار سيره في أودية يهبطها وجبال يتسلقها وكان يقف مرارا لسوء الوقود وخلل الآلات وليس في مركباته مصابيح فكنا أول الليل في ظلام ثم طلع القمر فأنسنا به ووصل القطار الى معان (س ١٢ ق ٣٠) فكانت المسافة ١٢ ساعة وقد قيل لنا انه تأخر عن موعده ساعتين كسابقه

وفي محطة معان مطعم كبير للمسافرين والقطار مكث فيها ريثما يتعشى من شاء من المسافرين ويأخذ القطار طعامه وشرابه من الفحم والماء وقد مكثنا نصف ساعة أو أكثر تعشينا فيها ثم استأنفنا السير الى دمشق فبلغناها (س ٢ وق ٢٠) أي قبل الفجر بقليل

دمشق وفنادقها

بعد وصولنا الى محطة دمشق ببضع دقائق كنا في فندق (فيكتوريا) وهو أقرب الفنادق الى المحطة وأشهرها وأغلاها أجرة فلم أجد فيه غير حجرة في الدور الاول لا يتخللها الهواء ولا النور ، أيبتها فوعدت بتبديلها في النهار وسألت الخدم عن حمام الفندق فقيل انه ليس فيه حمام ولا رشاش ماء (دوش) ولا حنفية ماء

لغسل اليدين والرأس فغسلت رأسي في طشت الحجرة وتوضأت وصليت المغرب والعشاء جمع تأخير ونمت ما بقي من الليل

ولما أصبحت استنجزت الوعد بتغيير الحجرة فلم أجد حجرة صحيه بل قيل لي ان بعض النازلين فيها سيسافرون فتخلو حجرهم ، ولما حضر طعام الغداء والعشاء وجدت الماء على المائدة غير مثلوج فسألت : الا يوجد في الشام ثلج ؟ قيل بلى ان فيها ثلجا وجليدا طبيعيا وصناعيا ولكن صاحب الفندق مع استعماله اقتصادا فعزمت على الخروج من هذا الفندق بعد رؤية أشهر الفنادق الكبرى واختيار أمثلها ولكنني لم أستطع الخروج في اليوم الاول لان بعض من رآني أخبر غيره بأني جئت الشام ونزلت في [فيكتوريا] فجاء كثير من الوجهاء لزيارتي وفي اليوم الثاني كان الزائرون أكثر ولكنني انتهزت فرصة طفت فيها على الفنادق القريبة فرأيت أمثلها فندق الشرق (أو الحمام) الملاصق لفندق فيكتوريا فانتقلت اليه ، وفضلته بوجود مكان فيه للاستحمام ووجود الماء في بعض مراحيضه ووجود باحة خلوية في وسطها بركة ماء ووجود الماء المثلوج فيه . وأي المزايا خير من مزايا الماء والهواء ؟ نعم ان فندق فيكتوريا — ومثله فندق [دمسكوس بلاس] أدفأ في الشتاء من فندق الحمام ، والاول أنظف ولكن القيود فيه أشد وأثقل

الزيارات وردها وأحاديثها

زارني من لا أحصي من رجال الحكومة والعلماء والادباء والوجهاء فمنهم من عرفتهم بشخوصهم أو مناصبهم ومنهم من لم أعرف وما كان رد لزيارة لكل منهم ممكنا وليس عند أهل الشام من التسامح والتساهل في هذا الامر ما عند أهل مصر وأهل بيروت، فاكتفيت برد لزيارة الى الحاكم العسكري العام والقاضي والمفتي وبعض العلماء والوجهاء الذين عرفتهم كمحمد فوزي باشا العظم وعبد القادر باشا المؤيد واعتذرت للآخرين في الجرائد مع الشكر لهم. وأما خواص اخواننا وأصدقائنا فقد جمعتنا بهم المآدب والسمار في مجالس حافلة من دورهم العامرة كدار الاستاذ الشيخ كامل قصاب ودار البيطار ودار المارديني وغيرها ، وكان مل حديثنا في تلك المجالس البحث في أهم المسائل الدينية والعلمية والاجتماعية وقد عودني الناس من أول العهد

بدخولي في الحياة العلمية الى اليوم ان يسألوني عن المشكلات الدينية ولا سيما المسائل التي يتعارض فيها الدين مع العلوم والفنون وشؤون العمران . وقد كان حظي من هذا في رحلتي هذه على ما أعهد في سائر البلاد ولكن أكثر مباحث الناس معي في هذه الرحلة كان في المسائل السياسية ما هو واقع منها وما يتوقع

معاهدة سنة ١٩١٦

اتفق ان أعلن كل من دولتي انكلترة وفرنسة عقب وصولي إلى الشام انهما اتفقتا نهائيا على تنفيذ معاهدة (سايكس و بيكو) المعروفة بمعاهدة سنة ١٩١٦ وان انكلترة ستخرج جنودها من المنطقتين الشرقية والغربية من سورية وتترك الاولى للجيش العربي الحجازي والثانية للجيش الفرنسي ، وما كان حمايا للامير فيصل على السفر الى أوربة في هذه المرة الا تمهيدا لهذا العمل

وكان أهل سورية عامة يظنون قبل هذا الاعلان أن الدولتين الحليفتين قد عدلتا عن تنفيذ تلك المعاهدة لما رأوه من التنازع بين رجالها في النفوذ أيام وجود اللجنة الاميركية في سورية وسعي كل منهما في كل منطقة من المناطق الثلاث لكسب أصوات الاهالي في طلب انتدابهم لمساعدة البلاد أي لاستعمارها بهذا الاسم الجديد الذي وضع في قاموس السياسة بعد العلم بنفور الناس كافة من الاسماء الاخرى التي ابتذلت وزال انخداع الناس بها كلفظ الحماية والاحتلال الموقت ، فلما أعلنت الدولتان اتفاقهما كبر وقعه وعظم صدعه في قلوب الجماهير الذين خدعوا بذلك التنازع ، وظنوا ان انكلترة تفضل العرب على فرنسة فكان كل من زارني منهم يسألني عن رأيي في هذا الحدث الجديد في السياسة الانكليزية فكنت أقول : انكم ترونه جديدا وأراه غير جديد ، أن السياسة الانكليزية ثابتة وما كان لعاقل ان يظن انها تفضل العرب على فرنسة ، وانما عرض لفرنسة أمل جديد أحدثه اجماع السوريين في بلادهم وفي مهاجرهم كلها على وحدة سورية وعدم تقسيمها الى ثلاث مناطق مختلفة الادارة والسلطة فحسبت انه يمكنها حمل هذا وسيلة لاحتلالهم سورية كلها